

الفصل الحادى عشر

تأملات من المنطقة: دراسات حالة

فائدة واستخدام البحث الكيفى:

تستخدم الأغلبية العظمى من الباحثين المقابلات الشخصية، تليها حلقات النقاش البؤرية والملاحظات. كما ينتشر تطبيق دراسات الحالة ووسائل التقييم السريعة القائمة على المشاركة فى مصر. ونعرض فى الجزء التالى بعض الأمثلة عن فوائد استخدام البحث الكيفى ومعوقاته فى مصر ولبنان.

أ. الناحية الاجتماعية:

يساعد البحث الكيفى فى اكتساب النظرة المتعمقة والادراك الذين يصعب توажدهما فى النموذج الكمي. ويتمتع الباحث الكيفى بفرصة التقرب من الآخرين والتعرف على أعضاء المجتمع المحلى وحراس المجتمع من ذوى النفوذ. ويفتقد البحث الكمي تلك الديناميات الاجتماعية التى تخلقها العلاقة بين المشارك والباحث المبنية على أساس الثقة والصراحة والتبادل. وفى هذا السياق، يرى مدير احدى المناطق التابعة لمنظمة غير حكومية، أن المشاركة هى احدى الوسائل الهامة للغاية، التى يتفاعل الباحث والسكان المستهدفون من خلالها، حتى أن النتائج التى تنتهى إليها قد تختلف عن الأفكار التى يبدأ بها.

ب. النواحي المنهجية:

أثنى المشاركون على البحث الكيفى على خصائصه المنهجية المتعددة. فقد ثمنوا بشكل خاص الأسئلة المفتوحة، ووجهة النظر الشمولية للبحث الكيفى، وقدرته على طرح السؤال الخاص بالسبب أى "لماذا" الذى لا يتناوله النموذج الكمي، وتقدير الحاجات والمشاكل المتعلقة بالسكان المستهدفين.

فى صياغته للأسئلة المفتوحة، يتمتع الباحث بالحرية والمرونة فى تكييف تلك الأسئلة، كما أن التحكم فى عملية البحث واكتشاف الحقائق المتعددة هى أيضا صفات اضافية أثنى عليها الباحثون الذين يرون أن المنهجيات الكيفية والكمية تكمل بعضها البعض فى أى مشروع بحثى.

المعوقات/التحديات التي تواجه البحث الكيفي:

التحكم في عملية البحث:

يواجه الباحثون المنتمون للنموذج الكيفي (منذ لحظة دخول الحقل وحتى الانتهاء من العمل الميداني) العديد من التحديات والمعوقات غير المسبوقه. ولذلك، قد لا يتمكن الباحث من الاحتفاظ بتحكمه في عملية البحث في كافة الأوقات. وحتى الباحث المتمكن يتعرض لمواجهة المشاكل، بالرغم من استعداده ومهاراته. وقد وصف أحد علماء الانثروبولوجيا اللبنانيين تلك الحالة بقوله "ان المنهجية برمتها تمثل تحدياً" لأن كل شئ في عملية البحث الكيفي نسبي ويصعب التنبؤ به. لذلك تعتبر المعوقات عنصراً ضرورياً في العمل الميداني وهي تظهر في كل مرة".

ان الالتزام بعدد المقابلات المتوقع إجرائها يومياً في منطقة ريفية أو شعبية لم يكن دائماً أمراً ممكناً وقد يرجع ذلك إلى الطبيعة غير الرسمية لسياق البحث، إذ قد يدفع الفضول أعضاء مجتمع القرية إلى التجمع وتقديم آرائهم. فيجد الباحث نفسه في مواجهة عدد أكبر من المشاركين لإجراء مقابلة معهم، بدلاً من المقابلات الشخصية مع فرد واحد، كما كان مقرراً. "لما بتروحي الأحياء الشعبية بيبقى الباب مفتوح والجيران تيجي بتلاقي بقه الموضوع كبر"

متطلبات المهارة والتدريب:

لقد أقر الباحثون بأن ليس كل باحث قادراً على إجراء البحث الكيفي. فلا بد أن يحصل الباحث على التدريب الكافي على وسائل جمع البيانات المختلفة حتى يكتسب المهارات الضرورية للخروج بنتائج قوية. ويعتبر اكتساب مثل هذه المهارات تحدياً، تماماً ككتابة أسئلة المقابلة. إن مهارات إجراء المقابلات، مثل التقصي مع الأشخاص الخجولين، أو إعادة توجيه الحديث مع الأشخاص الثرثارين للتركيز على الموضوع الرئيسي للنقاش والإجراء الفعلي للمقابلة، كلها تحديات، كذلك عملية التسهيل والتنسيق المطلوبة لإجراء حلقات النقاش البورية.

بالإضافة إلى الخبرات والتدريب، فأن الصفات والمؤهلات الشخصية للباحث مسؤولة أيضاً عن نجاح النتائج. ذكر مسؤل عن إحدى المنظمات غير الحكومية في مصر أن الحساسية تجاه مشاعر الآخرين من أهم المهارات المطلوبة. وقد يكون الشعور العام وراء اتساع الفجوة في اكتساب التدريب الأساسي سببه الميل المتزايد بين الاكاديميين ومراكز الأبحاث الى استخدام وسائل البحث

الكمي مثل المسوح، نتيجة الاعتقاد السائد بأن الأرقام والنسب المئوية أكثر مصداقية لأنها تقوم على أساس القياسات العلمية. وأشار أحد الموظفين في معهد حكومي للبحاث الزراعية إلى بعض التحديات التي يصادفها الباحثون أثناء إجراء مجموعات النقاش البؤرية في المناطق الريفية. ففي مثل هذه المناطق، إذا تواجد أعضاء المجتمع المحلي والأشخاص من ذوى النفوذ في نفس حلقة النقاش، زاد احتمال نشوب مواجهات وأحاديث جانبية بينهما، وفي بعض الأحيان، قد يهيمن متحدث معين على الجلسة. في تلك الحالة يواجه الباحث تحدياً كبيراً في سعيه إلى التحكم في المتحدثين المهيمنين على الجلسة.

المشاكل التنظيمية:

الوصول إلى الحقل الميداني

لقد مثل الوصول إلى حراس المجتمع أو الأشخاص المعنيين تحدياً عظيماً للباحثين. وقد يصبح الوصول أمراً صعباً بشكل خاص إذا كان القائم بالبحث شخص واحد وليس فريق بحث من مؤسسة إكاديمية. وقد أشار بعض الباحثين اللبنانيين المبتدئين (مساعدو الباحث من طلبة الدراسات العليا) إلى الصعوبات التي كانوا سيواجهونها في التعرف على الأشخاص من ذوى النفوذ في منطقة البحث، إذا لم يكونوا يعملون تحت مظلة الجامعة. وفي بعض الأحيان، قد يكون الوصول إلى الأشخاص المعنيين مشكلة نتيجة لحساسية موضوع البحث (العنف المنزلي، أطفال الشوارع، ادمان المخدرات)، أو بسبب خصائص مجتمع البحث (معسكرات اللاجئين الفلسطينيين، السياق السياسي)، المبحوثين الأساسيين (العمدة أو السكان المستهدفين أنفسهم) (أطفال الشوارع، المدمنين، النساء المتزوجات).

استخدام جهاز التسجيل:

في بعض الأحيان رفض المشاركون استخدام جهاز التسجيل، فلم يتمكن الباحثون من تسجيل المعلومات كتابياً و الانصات إلى النقاش في نفس الوقت. وفي حالات أخرى، حتى مع السماح بالتسجيل، تداخلت الأصوات أثناء التسجيل بشكل جعل من عملية تفرغ اللقاء مسألة معقدة.

مشاكل الوقت:

إن مشكلة ضيق الوقت من المعوقات الشائعة التي يواجهها العديد من الباحثين. فالباحثون مقيدون بتوافر الأموال وبفترة المشروع التي قد تكون قصيرة نسبياً مقارنة بالمجهود المطلوب من الباحث. وأحياناً ما يؤدي طول فترة المقابلة التي قد تتعدى الساعة أو الساعة ونصف ساعة، إلى زيادة مشكلة الوقت تعقيداً. وقد أشار أحد المشاركين وهو إكاديمي كان يعمل في مشروع تقييم للحكومة، أنه لم يكن لديه إلا شهر واحد للخروج بنتائج، فلم يتمكن من خلق علاقات ودية مع المبحوثين.

المعوقات الخاصة بالأنوع الاجتماعي:

ترفض النساء في مصر وبشكل خاص في المجتمعات الريفية المحافظة الاختلاط مع الرجال أو حضور اللقاءات التي يتواجدون فيها. فاما أنهن يجلسن في الخلف، أو يرفضن الحديث مع الباحثين من الذكور (مثلاً في الصعيد أو أسيوط). وفي مثال آخر، رفضت النساء حضور لقاءات مشروع خاص بسوق الخضرا، بسبب وجود الرجال. وقد يكون عدم انتظام حضور النساء إشارة إلى هيمنة الرجال في الثقافة العربية، كما عبر عن ذلك أحدهم قائلاً "دى عيبة في حقنا - محنا حانقول لكم كل حاجة". كذلك فشل باحثان آخران في إجراء مقابلة مع النساء بمفردهن، لأن النساء رأين أن الرجال غريبان. وربط الباحثان بين هذه الظاهرة وتأثير الثقافة العربية التي تمنع النساء من الحديث مع الرجال الغرباء.

حساسية الموضوعات:

نتيجة لحساسية بعض الموضوعات التي تم تناولها مثل العجز، مشاكل المراهقة، إدمان المخدرات، العنف المنزلي، أطفال الشوارع، رفض المشاركون في بعض الأحيان الإجابة على الأسئلة أو عبروا عن رأيهم بأن الإجابة عليها سيعيد انتهاكاً للخصوصية.

التدخل السياسي:

قد تتطلب الرسميات السياسية بعض الجهد. ففي بعض الأحيان يشارك المسئولون الرسميون في الاجتماعات لمجرد التواجد، ولكنهم نادراً ما يقدمون أي نوع من المساعدة خلال مدة البحث.

وفي مصر، على سبيل المثال، تعتبر مسألة الحصول على إذن حكومي قبل البدء في اجراء الدراسة من الأمور التي تؤرق بال الباحثين. فالمؤسسات الحكومية لا تمنح الباحثين الكيفيين الأذن بإجراء الأبحاث النوعية بسهولة، لإيمانهم الأكبر بالبحث الكمي. وبعد الحصول على الأذن، يشكو الباحثون من اضطرارهم إلى الاتصال بممثلي المجالس المحلية أو مسؤوليين حكوميين آخرين لحضور اللقاءات أو حلقات النقاش البورية التي يعقدونها مع الأشخاص المعنيين أو أعضاء المجتمع المحلي، كجزء من المتطلبات لأتمام المشروع. وتستهلك مهمة تعريف المسؤولين بالدراسة وقتاً وجهداً إضافياً طويلاً ونادراً ما تكون مجدية.

المسائل الأخلاقية:

يرى الباحثون في المسائل الأخلاقية تحدياً عظيماً. وتشمل تلك المسائل أموراً مثل الحفاظ على السرية، واحترام لغة المبحوث وثقافته، ومدى عمق الأسئلة أثناء المقابلة. وقد أشار أحد المشاركين إلى الطبيعة الأشكالية للبحث الكيفي، إذا أن شفافية البحث قد تخلق شعوراً بعدم الاستقرار بين المجموعة المستهدفة خاصة إذا كشفت النتائج عن مسائل ذات طبيعة حساسة أو أشكالية (مثل الطلاق أو العنف).

معوقات أو تحديات أخرى:

ومن بين التحديات الإضافية التي ذكرت، هي صعوبة تحليل المادة المجمعة، والحفاظ على الحياد والشك في الغاية من الدراسة وتوقع مساعدة أو حلول ملموسة، وفهم اللهجة المحلية (مثل صعيد مصر) للمجموعة المستهدفة. ولابد أن نشير أيضاً إلى التحدي الكامن في الطبيعة غير المحددة للسلوك الانساني، بحيث قد يختلف رد فعل الأشخاص على نفس السلوك (مثلاً أن يخلع الشخص حذاءه في الأماكن المقدسة: فقد يكون مثل هذا السلوك مقبولاً بل مطلوباً في بعض الثقافات ولكنه مرفوضاً في ثقافات أخرى). بالإضافة إلى ذلك، ينبغي الإشارة إلى صعوبة العمل مع فريق من الباحثين الذين يمثلون خلفيات متباينة ومجالات خبرة وتدريب ومنهجيات مختلفة.